حول بعث القديم
منزلة المنفلوطي بين كتابنا
الأستاذ محمد خليفة التونسي

أوردت في مقالي السابق « حول بعث القديم »[1] خمس ملاحظات مما عن لي ملاحظته على مقال الدكتور محمد مندور « بعث القديم »[2]، وهأنذا أعود إلى مناقشة رأي الدكتور في المنفلوطي، وانقسام النثر إلى تيارين الآن، كما وعدت في آخر مقالي السابق، وكما أبيت على نفسي هناك أن أقف فيما لاحظت موقفاً سلبياً، فوقفت بعده موقفاً إيجابياً — سأقف هنا ليكون الرأي أوضح والكلام أتم، وسألزم نفسي الإيجاز هنا، كما ألزمتها إياه هناك لضيق المقام

رأى الدكتور أن القصة بمجرد ظهورها أخذت تغذي السجع بمادة الفكر، على نحو ما نجد في المويلحي « محمد »، ثم شاع الفكر بعدها، ومنها إلى المقالة « على نحو ما نجد عند السيد توفيق البكري الذي جمع في أسلوبه بين الصنعة اللفظية وجمال الصور الخيالية وصدق الإحساس أو أصالة الرأي ». ثم خطا النثر خطوة أخرى في القرن العشرين على يد المنفلوطي، فأصبح كالنثر الأوربي « تعبيراً مباشراً عن فكر غني أو إحساس صادق ». ثم قال: « واليوم ننظر في نثرنا فنرى تيارين كبيرين ينطوي في أثناء أحدهما المويلحي والبكري ومصطفى صادق الرافعي وأحمد حسن الزيات، على اختلاف في الأمزجة وعمق التفكير أو الإحساس، ولكنهم يجتمعون معاً في خاصية واحدة، هي أنهم وإن يكونوا أبعد من أن يمثلوا في شيء اللفظية التي سادت في عصور مصر الإسلامية المتأخرة، إلا أنهم رغم ذلك يحرصون على تجويد العبارة تجويداً فنياً، ويخضعون الفكر أو الإحساس لطرق الأداء، حتى ليأخذك في أدبهم جمال الصياغة قبل أصالة الموضوع، أو تحس بأن تلك الأصالة قد اضطرتهم إليها أصول الأسلوب التي ينتهجونها. والتيار الثاني يبتدئ كما قلنا بالمنفلوطي،

(١) الرسالة العدد ٥٧٧ (٢) الرسالة العدد ٥٧٢

ذلك الرجل المرهف الإحساس العذب الأسلوب ذلك الكاتب الذي غذى أجيال الشباب الناهضة أجل الغذاء، وبلغ من التأثير في نفوسهم ما لم يكد يبلغه كاتب آخر »

ولا تعنيني هنا مناقشة رأي الدكتور في تقدم الجد الفكري في القصة على المقال، فقد خالفته في ذلك ونقضته في المقال السابق، بل يعنيني ما نقلته بعد ذلك، وإنما ذكرته لأحفظ لآراء الدكتور اطرادها وتماسكها، ولأن ما لخصت أساس لما نقلت، ومن أجل هذا لجأت إلى نقل ما أريد مناقشته مع طوله دون التلخيص. وأسأل نفسي هنا سؤالاً يحدد الرأي الذي أريد مناقشته هنا، وسنرى أكان الدكتور موفقاً في الإجابة عنه أم لم يوفق

أالمنفلوطي ممن ينطوون في أثناء التيار الأول كالمويلحي والبكري والرافعي والزيات، أم ممن ينطوون في أثناء التيار الثاني كطه حسين الذي ضربه الدكتور مثلاً لرجال هذا التيار؟

يرى الدكتور أن المنفلوطي ممن ينطوون في أثناء التيار الثاني، بل يوغل فيرى أن التيار الثاني يبتدئ به، ونترك الآن أن هذا التيار ابتدأ به، وحسبنا أن نرى أكان أم لم يكن من رجاله؟

وقبل أن نناقش رأي الدكتور نلاحظ عليه أولاً أنه حدد الخاصية التي يجتمع فيها — كما عبر — رجال التيار الأول وسكت عن الخاصية التي يجتمع فيها رجال التيار الثاني، وقد تكرر هذا السكوت مرات منه حين لجأ إلى التقسيم

وما نظننا في حاجة إلى مقياس جديد غير مقياس الدكتور نطبقه لنرى أي تيار ينطوي فيه المنفلوطي، فماينا أن نتمسك به وهو وحده كفيل ببيان الحق الذي ننشده، وكفيل ببيان أن الدكتور أخطأ في تطبيق مقياسه وناقض نفسه ولم يصل إلى الغاية التي كان يجب أن ينتهي إليها، فقد استقام على سنن واضح في أول أمره ثم حطم مقياسه فانتهى إلى نهاية لم يتخذ لها بدايتها، ولم تكن البداية التي سلكها لتفصل به إليها

أما رجال التيار الأول فهم — كما قال الدكتور — مثل « المويلحي والبكري ومصطفى صادق الرافعي واحمد حسن الزيات على اختلاف في الأمزجة وعمق التفكير أو الإحساس، ولكنهم يجتمعون في خاصية واحدة، هي أنهم وإن يكونوا أبعد من أن **يمثلوا في شيء اللفظية التي سادت في عصور مصر الإسلامية**

المتأخرة ، إلا أنهم رغم ذلك يحرصون على تجويد العبارة تجويداً فنياً ويخضعون الفكر أو الإحساس لطرق الأداء حتى ليأخذك فى أدبهم جمال الصياغة قبل أصالة الموضوع ، أو تحس بأن تلك الأصالة قد اضطرتهم إليها أصول الأسلوب التى ينتهجونها»

والمقام لا يتسع لإيراد الشواهد من كلام المنفلوطى ، وما نظننا بحاجة إلى الوقوف عند شاهد خاص لنتبين أن هذه الخاصية تتحقق فى كل ما كتب المنفلوطى كما تتحقق فى المويلحى والبكرى والرافعى والزيات من رجال التيار الأول ، فأى كلام للمنفلوطى صالح لأن يكون شاهداً على قيام هذه الخاصية بأوضح سماتها ، ومن أجل هذا ولضيق المقام تركت الاستشهاد ، وأترك للدكتور أن يجيل بصره فى أى صفحة مما كتب المنفلوطى — وإنه لكثير — سواء ما وضع وما ترجم وأنا واثق أنه سيجد هذه السمات التى رآها فى آثار رجال التيار الأول قائمة فى آثار المنفلوطى ، بل سيجدها فى آثاره أوضح مما هى عليه فى آثارهم ، فما أكثر ما لجأ المنفلوطى فى سبيل إخضاع الفكر أو الإحساس لطرق الأداء ، وتجويد العبارة إلى إخراج الفكرة مضطربة ، والإحساس شائهاً ، وأظهر ما تظهر هذه السمات فيما ترجم المنفلوطى فإنه — لجهله الأصل الذى يترجم عنه — لا يقف فى تصرفه عند حد حتى ليضل من يقرأ جزءاً من ترجمته العربية حين يحاول أن يتعرف مقابله من الأصل الأجنبى ، بل كان يلجأ أحياناً إلى القصة الأجنبية فيجعل مقدماتها أعجازها ، ويشيع فيها الهدم علواً وسفلاً ، ويقص بعض أطرافها ويزيد فى بعضها الآخر ، ولا يزال مكباً عليها مسخاً وتشويهاً حتى ليعجز متتبعه عن السير معه وحتى ليكاد يخفى الأصل كله عنه لولا أن يهتدى إليه من طريق آخر كالأعلام مثلاً ، وما علينا إلا أن نرجع إلى ترجمته لقصة غادة الكاميليا فقد غير حتى عنوانها ثم جعلها قصتين بعنوانين ، كما يظهر ذلك من الرجوع إلى مجموعته (العبرات) وهذان العنوانان يظهران حتى فى فهرس المجموعة ، ولو وازنا بين ترجمة القصة فى آخر مجموعته والأصل الفرنسى أو بينها وبين الترجمة العربية للدكتور أحمد زكى بك لرأينا مقدار ما جنى المنفلوطى بجهله الأصل وحريته التى لا تقف عند حد — على هذه القصة الفريدة الخالدة ، ولقد كان مسخه يمتد إلى كل ما يترجم حتى العناوين ، وما أظن الزيات فيما ترجم — مع حرصه أيضاً على تجويد العبارة — قد اجترح شيئاً من آثام المنفلوطى لأنه يعرف الأصل ولا يترك الاتصال به فى أى موضع من المواضع ، وإنما اخترت الزيات لأنه باعتراف الدكتور من رجال التيار الأول

ولم يكن المنفلوطى ليكتفى فى الترجمة بما تضمه اللغة العربية بألفاظها وخصائصها من عراقيل فى طريقه رغم أنفه ، مع أن كثيراً من ذلك يستمد معناه من البيئة الصحراوية التى نشأت فيها العربية كما يستمده من الحوادث العربية المحضة ، وإنه لعبء أى عبء يحس به من شاء الترجمة الشفافة من أى لغة أجنبية إلى العربية ، بل كان المنفلوطى يضيف إلى العراقيل السابقة عراقيله هو من التشبيهات والكنايات والمجازات والاستعارات العربية التى يستمدها من أساليب الأقدمين ، وإنها لرواشم توارثها العرب لا حقاً عن سابق ، وهى تمت إلى خصائص عربية بدوية وتصبغ الكلام بصبغة عربية بدوية لا تخطر إلا فى بال من عاش فى هذه البيئة التى نشأت فيها تلك اللغة وتلك الأساليب مما لا يتصوره ذهن غربى ولا يلوكه لسان غربى ولا يوجد فى لغة غربية

أما ما كان يضمه المنفلوطى ، فقد كان حرصه فيه على جودة التعبير كما يفهمها هو من حيث البلاغة العربية أكثر منه فيما يترجم ؛ فقد كانت الترجمة عنده بالفكر والإحساس ، فلا يبقى له إلا التعبير ، أما ما وضع ، فالفكر والإحساس فيه له وحده . وإنه لفكر ركيك وإحساس إما فاتر وإما حار ، ولكن المبالغة فيه تبعث الإنسان على السخرية أكثر مما تبعثه على المشاركة فيه والعدوى به

يرى الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى أن الترجمة خير محك للكلام الجميل ، فالجميل فى لغة جميل فى غيرها ، والردىء فى لغة ردىء فى غيرها[1] ، ونحن مع ذلك نعتقد أن الكلام فى

(١) انظر عدد السياسة الأسبوعية الممتاز الذى صدر بمناسبة إسناد إمارة الشعر إلى المرحوم أحمد شوقى بك سنة ١٩٢٧

نقله من لغة إلى أخرى يفقد كثيراً من جماله ، ولكن الأفكار والأحاسيس يستطاع نقلها مع المحافظة على جمالها ، وليس يضيع فى النقل إلا جمال التعبير

فماذا على الدكتور لو أنه نقل جزءاً مما كتب المنفلوطي إلى لغة أجنبية يعرفها ثم نظر فيه بعد ذلك !

أنا واثق أن الدكتور لن يجد بين يديه شيئاً تافهاً أو لاشيء ، لأن جودة التعبير هى أبرز فضائل المنفلوطى ، وهى شيء يضيع أثناء النقل ، فلا يبقى له إلا الفكرة أو الإحساس ، وإنهما لشيئان تافهان ـ هذا إذا كانت هناك فكرة وكان إحساس

وقد لاحظنا أننا نتكلم عن أسلوب التفكير وأسلوب التعبير ، فنلاحظ أنه كلما كانت الفكرة أو الإحساس أو الصورة أدنى إلى السذاجة كان التعبير عنها أيسر ، فإذا كان المنفلوطى أيسر فهماً من الرافعى والزيات وغيرهما ؛ فمصدر ذلك أنه لا يتعمق فى فكره كما يتعمقون ، ولا يرهف إحساسه ويصدق كما يرهفون ويصدقون ، ولا يجهد نفسه ليرتقى إلى آفاق الفكر العليا والمثل الإنسانية الرفيعة كما يجهدون ويرتقون

والصبي إذا استطاع أن يعبر الجدول قفزاً دون أن يصيبه البلل ليس له أن يفخر على الرجل إذ يعجز عن عبور النهر إلا سباحة فيقاسى ما يقاسى فى عبوره من هول الأمواج والتيارات ووحوش الماء ، ولا ينال ما يريد إلا بعد أن يأخذ منه النصب كل مأخذ ويلقى من المتاعب ما لا يخطر للصبي على بال ، وما على الصبى إذا شاء الفخر إلا أن يلقى بنفسه فى النهر كالرجل وسيعرف أنه ليس الجدول كالنهر

من أجل هـذا ترى أن المنفلوطى ليس من رجال التيار الثانى ، فلا يجوز بحال أن نرى ما رأى الدكتور من أن التيار الثانى قد ابتدأ به ، ومن أجل هذا كان المنفلوطى من رجال التيار الأول ، بل إنه لأصل فيه من بعض من يظنهم الدكتور أصلاء فيه ، وخاصة الرافعي وعلى وجه أخص الزيات ؛ فإن الزيات أدنى منه إلى رجال التيار الثانى وأشبه بهم منه

ولطالما عجم الزيات على أعقد مما اضطرب فيه المنفلوطى من المشاكل الفكرية ، ومع محافظته على اطراد آرائه واتزان خطاه وصفاء فكره وخصائص شخصيته — استطاع أن يحتفظ لتعبيره بطلاوته وأناقته وإشراقه على النحو الذى يفهمه من بلاغة أسلوب التعبير فى اللغة العربية ، كما أبان لنا عنه فى مقالاته حين تعرض للدفاع عن البلاغة

وإنه ليبلغ من بلاغة التعبير ما يريد دون أن ينسى أو ينسيك المشكلة التى يعالجها ، أو يخدعك بجمال الصياغة عن الموضوع الذى يحدثك به ، وما هكذا المنفلوطى ؛ فإنه ليبلغ منه الحرص على جودة التعبير أحياناً مبلغاً يخرجه حتى من رجال التيار الأول المحتفظين بجمال الصياغة ، مع احتفاظهم بوضوح شخصيتهم وخصائص أمزجتهم والصدق فى إحساسهم والجد فى تفكيرهم — ويدنيه إلى الفئة الذين كل همهم أن يخدعوك عن ثقافتهم بحلية لفظية زائفة كرجال العصور الإسلامية المتأخرة أمثال الحريرى وابن زيدون والقاضى الفاضل والوطواط وابن نباتة والصفدى وابن حبيب الحلبى والجبرتى والشرقاوى وغيرهم ممن تخلو كتاباتهم الأدبية من كل فكر جاد وإحساس صادق . ونقول يدنيه منهم ولا نقول يضمه فيهم ، لأن المنفلوطى — مهما يسف — لن ينحط حتى يكون مثلهم ، ولن يتهافت حتى يبلغ مبلغهم من التفاهة والسخافة والفسولة ، ولكنه كثيراً ما نُزق مثل نزقهم ، وإن كان أرفع منهم أفقاً وأقوم فكراً وأصدق حساً ، فظهر كالشعبذ مثلهم ، ولو أن شعبذته من صنف أرق وأدق وأعمق

المنفلوطي من رجال التيار الأول ، وليس أفضل رجاله ، وإن كان من أفضلهم ، ونحن نظلمه حين نخرجه عن أشباهه إلى غير أشباهه ؛ فلنضمه حيث وضعه الله ووضعته ملكاته ومؤهلاته وتربيته وثقافته ، وبهذا نوفيه حقه ونعرف له فضله ، وإنه لفضل عظيم . . .

ووداعاً يا سيدى الدكتور إلى أن نلتقى فى مقال آخر نجيب به عن هـذا السؤال : آلمنفلوطى — كما قلت أنت — الكاتب الذى غذى أجيال الشباب الناهضة أجل الغذاء ، وبلغ من التأثير فى نفوسهم ما لم يكد يبلغه كاتب آخر ؟

وإليك منى خالص تحياتى وتجلاتى

(سمالوط) محمد خليفة التونسى